شعيب

عليه السلام

روى ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر شعيب عليه السلام قال:

«ذاك خطيب الأنبياء».

وذلك من أجل ما اشتهر به شعيب عليه السلام، من الفصاحة والبلاغة وإدارة الكلام الحق المقنع، متناسقًا مع الظروف والمناسبات.

ويقول الله تعالى:

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾. (هود آية مدين: ٨٤).

ومدين مدينة وإقليم فى أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز، ومدين أيضًا قبيلة كانت تقطن هذه البقعة من الأرض التى سميت باسم القبيلة.

ولقد أرسل الله لهم شعيبًا عليه السلام ليعالج أمراضًا اجتماعية وخلقية ودينية انتشرت فيهم.

والله سبحانه وتعالى يرسل الرسل ليبينوا للناس أمرين:

الأول منها: رسم طريق الهداية فى أصوله وقواعده، طريق الهداية فى العقيدة، وطريق الهداية فى الإخلاق، وطريق الهداية فى التشريع، أى رسم الطريق الذى يسود به الأمن فى المجتمع، وتكون به السعادة، وهو طريق لا يرسمونه من عند أنفسهم، ولا يخترعونه من بنات أفكارهم وإنما يتلقونه عن الله فيبلغونه للناس، ويعملون جهدهم على نشره وتحقيقه.

والأمر الثانى الذى من أجله أرسل الرسل: هو بيان الآثام التى أمر الله سبحانه وتعالى باجتنابها، وهى آثام تضر بالفرد فى نفسه، وتضر بالمجتمع.

وإذا كانت بعض هذه الآثام منتشرة فى البيئة التى يرسل فيها الرسول فإنه يعنى بها عناية خاصة.

ولقد انحرف أصحاب مدين فى جميع المجالات الروحية، أى فى العقيدة، وفى الأخلاق، وفى التشريع فكان من العدل الإلٰهى أن لا يعذبهم حتى يرسل لهم رسولاً، يقول سبحانه:

﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ (الاسراء آية: ١٥).

ولقد سمى الله قوم شعيب أصحاب الأيكة فقال:

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ (الشعراء آية: ١٧٦).

والأيكة شجرة من الأيك، كانوا يعبدونها من دون الله، وهذا هو الانحراف والفساد فى العقيدة، وهذا الانحراف هو أول شيء ينبه عليه الرسل ويعملون على إزالته.

ولقد حاول سيدنا شعيب عليه السلام اقتلاع هذه العقيدة من أنفسهم بشتى الوسائل، فهو ينبههم أولا إلى أنه رسول أمين، وكان ذلك من البدهيات عندهم، فهم لم يعلموا عنه خيانة.

وينبههم ثانيًا إلى أنه لا يسألهم عن دعوته أجرًا، فهو يحتسب أجره عند الله وهذه صفة المخلصين.

إنهم لا يطلبون دنيا، ولا يكنزون مالاً ولا يطلبون ثراء بسبب دعوتهم أو رسالتهم التى ينشرونها، وإنه لمن الواضح أن الفرق بين الداعية المخلص، والداعية المزيف، هو أن الداعية المخلص لا ينظر إلى دنيا يجمعها أو إلى ملاذ ينغمس فيها.

أما الداعية المزيف، فهمُّه كل همِّه اكتناز المال والاستمتاع بالثراء.

ولكن قومه - فى الأغلب الأعم منهم - لم يستجيبوا لدعوته، وأخذوا فى معارضته، ووصل بهم الأمر أن كانوا يجلسون فى كل مكان آهل بالمارة، يهددون من تحدثه نفسه باتباع شعيب ويصدون عن سبيل الله من آمن به، وذلك من أجل أن يستمر الجميع على طريق واحد هو طريقهم المعوج، المنحرف. ولقد كان مما قاله لهم:

﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون، وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجًا﴾ (الأعراف آية: ٨٦).

ثم أخذ يذكرهم بنعم الله عليهم.

﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ (الأعراف آية: ٨٦).

وأخذ يذكرهم بعاقبة من لم يؤمن قائلاً:

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾. (الأعراف آية: ٨٦).

وأخذ مع كل ذلك يحاول اقتلاع جذور الفساد فى المجتمع.

لقد كان مجتمع مدين فى غاية الفساد، وكان لابد من أن يغير قوم مدين ما بأنفسهم من السوء إلى صفات الخير خشية أن يدمرهم الله تدميرًا.

ومن أجل أن لا يهلكهم الله بعذاب من عنده، ومن أجل أن لا يأخذهم أخذ عزيز مقتدر منتقم، حاول سيدنا شعيب إصلاحهم، وكانت الخطوة الأولى فى الإصلاح وهذه الخطوة الأولى فى كل إصلاح روحى دينى أخلاقى إنما هى الاستغفار والتوبة.

وقال لهم سيدنا شعيب عليه السلام:

﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾.

ثم ذكر لهم صفتين من صفات الله أرق ما يكون، وأرأف ما يكون:

﴿إن ربى رحيم ودود﴾ (هود آية: ٩٠).

وهو لرحمته ووده سيتجاوز عما سلف إذا رجعوا إليه بالاستغفار والتوبة الخالصة النصوح.. أما موضوع التوبة فهو هذه الجرائم الكثيرة التى كانوا يأتونها فى مجتمعهم ومنها الإفساد فى الأرض، ولقد قال لهم شعيب:

﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾ (الاعراف آية: ٨٥).

وقال لهم: ﴿ولاتعثوا فى الأرض مفسدين﴾ (الشعراء آية: ١٨٣).

والإفساد فى الأرض جريمة من أكبر الجرائم فى النظرة الدينية، وهى جريمة تؤسس عادة على الإلحاد، أو على الانحراف فى الدين.. وكلما ظهر فى المجتمع ضعف الإيمان، أكثر أهله الإفساد فى الأرض، وقد بين الله سبحانه جزاء المفسدين فى الأرض فقال:

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ (المائدة آية: ٣٣).

أما الاسم الذى اشتهر به أهل مدين والذى كرر شعيب عليه السلام الحديث عنه معهم أمرًا وناهيًا فهو اسم يتصل بالتجارة.

لقد كانت التجارة عندهم فى غاية السوء، فقد كانوا يطففون الكيل والميزان فيزيدون إذا أخذوا، وينقصون إذا أعطوا، فأخذ سيدنا شعيب يقول لهم:

﴿أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ (هود آية: ٨٥).

ويقول: ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ (الشعراء آية: ١٨١-١٨٢).

وبين لهم أن بقية الله - أى رزقه الحلال - خير لهم من أخذ أموال الناس بالباطل، ولكن ظاهرة تطفيف الكيل والميزان كانت متمكنة من نفوسهم.. حيث لم تكن الاستجابة إلا فى الأفراد القلائل الذين آمنوا بشعيب عليه السلام، وظاهرة التطفيف، والآثام التى حذر القرآن الكريم منها وبين جزاءها فقال فى أسلوب فيه إنذار وتهديد:

﴿ويل للمطففين﴾.

والويل واد فى جهنم ذو عذاب أليم.

ثم بين سبحانه وتعالى المطففين بقوله:

﴿الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾.

ثم أخذ الله سبحانه يعجب من أمرهم فيقول:

﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾.

واستمر شعيب عليه السلام يعالج الأمراض المتنوعة بأسلوبه المنطقى، وبسلوكه المستقيم، فاستجاب له من أراد الله له الهداية والرشد، وصد عنه الغالبية العظمى من قومه، واستمروا على ما هم عليه من فساد وجور

وظلم فكانت عاقبتهم هي عاقبة الشر والمعاصي والآثام وهي ما عبر الله سبحانه وتعالى عنه بقوله:

﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبًا والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يغنوا فيها ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود﴾ (هود آية: ٩٤-٩٥).